الإسلاموفوبيا من منطق الأمننة.. عندما يتحوّل الإسلام إلى قضية أمنية

عبد الرفيق كشوط*

ملخص: أخذ مفهوم (أمننة الإسلام) في الآونة الأخيرة حيّزًا واسعًا وأهمية متزايدة في النقاشات السياسية والعلمية، خصوصًا مع اتساع حدّة ترويج النخب وصناع القرار في الغرب بأنّ الإسلام عدوّ جديد حلّ محلّ الأعداء التقليدين للغرب؛ وعلى هذا الأساس تهدف هذه الورقة البحثية إلى سدّ الفجوة المتعلّقة بهذا النهج الجديد الذي اعتمده سياسيون، وأكاديميون (كمدرسة كوبنهاغن ومسألة الأمننة)- في تصوير قضية ما على أنها مسألة ومشكلة أمنيّة، وبيان كيفية تصوير الإسلام موضوع الدراسة على أنه مشكلة أمنية... كما تسعى هذه الورقة إلى اختبار الافتراضات القائمة على أمننة الإسلام، وبحث وتقصّي الآثار المترتبة على عملية أمننة الإسلام في الإسلام والمسلمين أو في غيرهم.

* جامعة محمد الصديق بن يحيى، الجزائر

Islamophobia from the Securitisation Logic: When Islam Becomes a Security Issue

RAFIK KECHOUT*

ABSTRACT The presence of Islam in Western countries has recently been considered a security concern by Western politicians, decision-makers, and civil society institutions. Within this context, Islam has been portrayed both as a security problem and an existing threat to the civilized Western values and identity. This fear has been worsened with the influx of migrants into Europe mainly from Muslim countries. Although Islam in the West has been present for ages, the fear and phobia of Islam has grown with the wrong promotion of its ideals by some of its affiliates. This, in return, has contributed to the growing and spread of Islamophobia which considers Islam a threat that must be dealt with through several mechanisms that are characterized by ruthlessness, marginalization, and restrictions on Islam. These efforts eventually resulted to racism and hatred towards Islam, despite Islam being far away from the way it has been described.

* Mohamed Seddik Ben Yahia University, Algeria

رؤية تركية
2016 - (5/4)
142 - 129

1 - أمننة الآخَر وفلسفة تصوّر العدو عند الغرب

إنّ التعددية الثقافية، وتزايد معدلات الهجرة، وتداخل الهويات في هذا العصر ستدفع بالمجتمعات المضيفة إلى الشعور بالغزو الثقافي والهوياتي، ويفرض عليه اتخاذ تدابير استثنائية تحدّ من الشعور بأنّ الآخَر تهديد له. من هذا المنطلق تهدف هذه الورقة من خلال هذه النقطة إلى البحث في حقيقة أمننة الآخَر على اعتبار أن الأمننة العادية –مدرسة كوبنهاغن– التي سيأتي الحديث عنها في أثناء الحديث عن أمننة الإسلام وعملية بناء العدو عند الغرب– تختلف عن هذا الطرح الجديد لبناء العدو، على الرغم من كونها امتدادًا لها. وعليه فإن تتبع هذا الطرح يجعلنا نسلك اتّجاهين، أولهما: مرتبط بكيفية بناء واعتبار الآخر تهديدًا، وثانيهما: هو تحصيل للأول، ومرتبط بالتدابير الاستعجالية والاستثنائية الواجب اتخاذها للتعامل مع الآخر (المهدِّد).

وعليه فمسألة أمننة الآخَر من المفترض أن تكون ناجحة ومقنعة، ينبغي أن تركز بالأساس على (ماذا) بدلًا من التركيز على (مَن)، وبمعنى آخر يجب التعامل مع (الآخَر) من منطلق أنه تهديد موضوعي بدلًا من التعامل معه على أنه تهديد ذاتي. وبصورة أوضح ركّزت (أمننة الآخر) على المسلمين من خلال الإرهاب كما ركزت على المكسيكيين من خلال الهجرة غير الشرعية، وهنا يمكن أن نرى بوضوح كيفية انتقال التهديد من كونه تهديدًا موضوعيًّا إلى كونه ذاتيًّا، بيد أنه كان من المفروض التعامل مع الإرهاب مثلًا بصورة مستقلة عن المسلمين، وعن الهجرة غير الشرعية بمعزل عن المكسيكيين، وهو ما يعني إخفاق فكرة أمننة الآخر في توصيف التهديد الحقيقي؛ إذ ليس المسلمون هم الخطر بل الإرهاب، وليس المكسيكيون هم الخطر بل الهجرة غير الشرعية[1].

غير أنه من الضروري في البداية أن نتعرف مفهوم الأمننة قبل الحديث عن أمننة هذا الآخر، فالأمننة كما وضّحها العديد من الدراسات الأمنية –وبخاصة مدرسة كوبنهاغن لبحوث السلام والأمن التي كانت أول من تحدث عن (الأمننة) من حيث هي مفهوم ومصطلح جديد في الدراسات الأمنية مع كتابات الأستاذ أوول وايفر "Ole Waever" حول الأمننة واللاأمننة Securitazion and desecuritization التي حث فيها على توسيع مجال الدراسات الأمنية– هي تناول مفهوم الأمن بناء على المخاطر التي تتحول إلى مشكلات أمنية في أذهان صناع السياسات، وهي العملية التي أطلق عليها الأستاذ وايفر (الأمننة)securitization " لتكون بذلك الأرضية المفاهيمية لدورة جديدة المنظور في الدراسات الأمنية، تقوم على فهم دقيق لطبيعة التهديدات، والوحدات المرجعية، والأسباب الكامنة وراء عملية الأمننة وظروفها[2].

إنّ مفهوم الأمننة كما أتى بها وايفر يكمن في "تحول قضية ما إلى مشكلة أمنية عندما تعلن النخب أن تكون كذلك"، حيث تلقى هذه المشكلة قبولًا واسعًا من قبل الشعوب، وذلك من خلال عملية خطابية بالأساس تكون الوحدة المرجعية فيها نابعة من (الذاتية) أو (المرجعية الذاتية) self-seferential التي تستند إلى المؤسّسات العالمية في تحديد التهديدات والوحَدات المرجعية.

1 - تعريف (أمننة الآخر)

في هـذه النقطة مـن الورقة يمكننا أن نطرح تسـاؤلًا جوهريًّا يؤسّـس لأن يكـون القاعدة المفهوميـة لإعطاء تعريـف واضح لفعل الكـلام: (أمننة الآخر)، وهو لمـاذا الحديث عن أمننة الآخر في هذا التوقيت؟

إن الإجابة عن هذا التسـاؤل تقودنا إلى البحـث في المكنونات الدافعة لظهور هذا المفهوم، وهو ما توفره السياقات الدولية المرتبطة بالتعددية الثقافية، والهجرة الواسعة، والتداخل الهوياتي الناجـم عـن تفرّع الأقليات، كلّ هذا يجعل من النسـيج الاجتماعي يهتزّ ويتصدّع، سـواء أكان ذلـك داخليًّـا أم خارجيًّا، وهو الأمر ذاته الذي تلقفته وروّجت له النخب السياسـية في الكثير مـن الـدول الغربية على أنه تهديد للنسـيج الاجتماعي والهوياتي للدولة والأمـة، والذي تلقّفته أيضًـا المجتمعات المضيفة على أنه كذلـك، وهو ما أدّى في نهاية المطاف إلى اعتبار (الغريب) أو (الآخر) تهديدًا بالفعل، سواء أكان ذلك بطريقة صامتة أم علنية[3].

مـا يمكن قوله في هـذا الصدد أن أغلب الذين يمارسـون (فعل الكـلام) أو (أمننة الآخر) هـم بالأسـاس السياسـيون وصنـاع القـرار في الدولة؛ حيـث يتبنون هـذه العمليـة إما بهدف زيادة شـعبيتهم لدى شـعوبهم، وإما بهدف تعزيز الحاضنة القومية للهوية، وإما بهدف صرف الشـعوب عن المشـكلات الداخلية التي تعيشـها الدولـة، مثل ارتفاع معـدلات التضخم، أو ضعـف الأداء الاقتصادي، ومن ثَمّ فـ(الآخَر) هـو المعادلة الرابحة التي يجب أن لا تغيب عن الخطاب السياسي والبناء السياسي لتصور العدوّ.[4]

وعـلى الرغـم من أن عملية الأمننة تبـدو عامّة إلا أنّ (أمننة الآخر) ركّـزت أكثر على أمننة (ديـن الآخـر)، ومن ثم ربطه بالإرهاب. فحتى إن سـلّمنا أن الإرهاب هو الخطر وفق سـياق الأمننـة إلا أن المنطق السـليم يفـرض أن يُحدّد الخطر والتهديد بدقة، هـل هو الإرهاب في حدّ

أغلب الذين يمارسون (فعل الكلام) أو (أمننة الآخر) هم بالأساس السياسيون وصناع القرار في الدولة؛ حيث يتبنون هذه العملية إما بهدف زيادة شعبيتهم لدى شعوبهم، وإما بهدف تعزيز الحاضنة القومية للهوية، وإما بهدف صرف الشعوب عن المشكلات الداخلية التي تعيشها الدولة

ذاته أو التكتيكات التي يلجأ إليها الإرهاب؟ ومن ثَمّ فالتعامل الناجع مع هذا التهديد لا يكون بالتركز على الإرهاب بقدر ما يجب أن يكون بالتركيز على الأساليب والتكتيكات التي يستعملها الإرهاب، ومن هنا فمن الناحية النظرية يتجلى الخطر والتهديد في الشخص الذي يلجأ إلى هذه التكتيكات لا في الإرهاب ذاته، باعتبار أنه حدث العديد من أعمال العنف ولم يكن المتورط فيها هو الإرهاب، بل أشخاص لم يكونوا محسوبين على الإرهاب[5].

إذن فالقاعدة الأساسية المقوّمة لـ(أمننة الآخر) تكمن في ضرورة أن نعي (كيف نعرف؟) و(كيف نعرف مَن نعرف؟)، وهو ما يتأتّى من خلال البحث في العلاقة بين (ماذا) و(مَن)، والبحث في السياقات التاريخية لهما، كما يتأتى من خلال تحديد وتقييم نطاق ومجال الأمننة وانعكاساتها الجانبية حول ما إذا كانت هذه العملية ستلحق أضرارًا بأقليات معينة أم لا[6].

إضافة إلى ذلك تكمن فلسفة (أمننة الآخر) في ذلك التغيّر الذي لحق بالوحدة المرجعية محلّ التهديد، إذ إن الوحدة المرجعية سابقًا كانت الدولة لا غير، بينما في هذا التوجه الجديد في (أمننة الآخر) تتمركز في الهوية التي تُعدّ أهمّ عامل لبقاء الدولة الأمة واستمرارها، ومن هنا فـ(الآخَر) هو التهديد الذي يهدّد الهوية، ومن ثَمّ يهدّد بقاء الدولة الأمة[7].

بناءً على هذه الأرضية المفهومية التي تؤسِّس لهذه النقطة من الورقة، فإن مسألة (أمننة الآخر) في الفكر المارساتي، أو النظري الغربي تتجلى في اعتبار أن كلّ من يختلف ويتعارض مع التوجهات الفكرية والمارساتية الغربية يُعدّ تهديدًا، ويُروَّج له على هذا الأساس، وأن مسألة العدو أمر مفروغ منه؛ فهو موجود إما موضوعيًّا أو ذاتيًّا، وإنما الذي يتغير هو فقط الشكل والنموذج، فالتهديد بالنسبة للغرب لم يتراجع، ولم يتآكل، غير أنه اتّخذ أشكالًا مختلفة تتغير من وقت إلى آخَر، ومن مكان إلى آخَر[8].

2 - الأسس النظرية لعملية (أمننة الآخر)

لنتمكن من فهم عملية (الأمننة للآخر)، ثمّ فهم عملية أمننة الإسلام نجد من الضروري أن نذكر، ولو باختصار، المسوّغات النظرية التي تقوم عليها عملية الأمننة للآخَر؛ لأنّ فهمها يجعلنا نستخلص الاتجاه الذي سلكته الأمننة في عدِّ الإسلام قضية أمنية، وهو ما سنتحدّث عنه بالتفصيل من خلال النقطة اللاحقة من الورقة.

إن الفعل الخطابي المرتبط بعملية الأمننة يتّخذ عدّة أشكال لاحقة بعضها لبعض، وفي الوقت ذاته مكملة لها، حيث يمكننا أن نذكر هنا مجموعة الأشكال والأنواع الآتية:

1. أمننة غير مباشرة، تكون من الأعلى نحو الأسفل.

2. أمننة غير مباشرة، تكون من الأسفل نحو الأعلى.

3. أمننة مباشرة، تكون من الأعلى نحو الأسفل.

4. أمننة مباشرة، تكون من الأسفل نحو الأعلى[9].

إن المتتبّع للمسار الذي تسلكه الأمننة في اعتبار قضية ما أنها مشكلة أمنية- يجد أن النوع المهيمن في الأمننة هو الأمننة المباشرة التي تكون من الأعلى نحو الأسفل، الذي تتبناه النخب السياسية والجهات الفاعلة، إلا أن ما يتحكّم فعليًّا في إنتاج أي نوع من الأنواع المشار إليها هو وجود مجموعة شروط وظروف تؤثر بصورة مباشرة في إنتاج نوع محدّد بذاته.

حيث يجد النوع المهيمن مسوّغاته في استمرار إنتاج الخطابات السياسية المروّجة لانعدام الأمن الذي يعدّ جزءًا لا يتجزّأ من مهامّ الدولة التي أخذت على عاتقها مهمّة تحقيق الأمن للأفراد، ومن ثَمّ أحقيتها في اعتبار أي قضية مشكلة أمنية، غير أن الملاحظ هو أن الدولة بدلًا من توفير الأمن الذي أخفقت فيه نجدها تسهم في إنتاج التهديدات من خلال الأمننة.

من ناحية أخرى، إن الأمننة وفق الشكل من الأسفل نحو الأعلى تكون من خلال افتراض أن انعدام الأمن يقرّره المجتمع لا الدولة؛ لأن الأمن الجديد يستند إلى الوحدة المرجعية المجتمعية لا الدولاتية، وعلى هذا الأساس يكون من المفترض أن يكون المجتمع هو من يقرر بنفسه ما يمثل تهديدًا محتملًا لوجوده لا الدولة، ذلك أن أجندات الأمن بالنسبة للمجتمع والدولة قد تذهب في اتجاهات مختلفة، الأمر الذي يعرقل الوصول إلى اتفاق واضح في تحديد التهديدات المحتملة أو المتوقعة.

إن النموذج المشار إليه سابقًا، والذي يقوم على الأمننة غير المباشرة من الأعلى نحو الأسفل، وعلى الرغم من اتساع نطاقه بين صناع السياسات ومؤسسات المجتمع المدني إلا أنه في ذات الوقت يحمل خطورة بالغة خاصة، إذا كان يستهدف بشكل غير مباشر أقلية، أو دينًا معيّنين، وقد يتحوّل إلى عملية مباشرة مع مرور الوقت، والذي يعدّ أكثر تطرفًا ومصاحبة للعنف والاضطرابات.

3 - أمننة الإسلام وعملية بناء العدو

تمثل حقبة ما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر 2001 منعطفًا حاسمًا في نظرة الغرب بصفة عامة تجاه الإسلام والمسلمين، امتزجت فيها هذه النظرة بالكراهية والخوف على حدّ سواء، وقد كرّست هذه النظرةَ أكثر مجموعةُ أحداث تلت هذه الأحداث، شهدتها بعض الدول الغربية، مثل تفجيرات مدريد عام 2004، وتفجيرات المترو في بريطانيا عام 2005، هذه الأحداث وغيرها أعادت إلى الواجهة قضية المسلمين والإسلام في الدول الغربية، وزادت من تعميق فجوة اندماج المسلمين في المجتمعات المضيفة، ولاسيّما في القضايا الاجتماعية والاقتصادية، والقضايا المدنية والثقافية، والقضايا الدينية، بل ومما زاد الأمر تعقيدًا تلك

الحملة المناهضة لوجود الإسلام والمسلمين في النسيج المجتمعي للدول الغربية، التي يقودها صناع السياسات، وهيئات المجتمع المدني، ووسائل الإعلام من خلال خطاب الأمننة.

ولكن قبل الحديث عن موجة الأمننة الموجهة ضد الإسلام والمسلمين في الدول الغربية، والآليات المتبعة في عدِّ الإسلام خطرًا وتهديدًا أمنيًّا، نرى من الضروري أوّلًا بحث إشكالية وقوع الإسلام بين عارضتَي (الأمننة) و(مضامين الخطر)، والفصل في كنه مصطلح (مضامين الخطر) بعدما فصّلنا الكلام في كنه كلمة (الأمننة).

1 - في معنى مفهوم (مضامين الخطر)

إذا كان فعل خطاب الأمننة يقوم على عَدِّ قضية ما مشكلة أمنية وتوصيفها بالأساس أنها تهديد أمني، فإن فعل (مضامين الخطر) يختلف عنها تمامًا؛ ذلك أن خطاب مضامين الخطر يقوم على تفعيل وتنشيط شكل محدّد من السياسات الأمنية الموجهة لخطر ما، أو ما يعرف بـ(سياسات الخطر الأمني) التي تقوم على توقّع العواقب السياسية لوجود الخطر[10].

وللتعرّف أكثر على كنه أو خطاب مضامين الخطر ينبغي أن ندرك ما يأتي:

1 - أن خطاب مضامين الخطر يقوم على وجود خطر ما وجودًا فعليًّا لا توقّعًا، وأن الخطر في نظر خطاب مضامين الخطر لا يقبل التأويل، ولا يحتاج إلى الترويج والدعاية، على عكس خطاب الأمننة الذي يحتمل، ومن ثَمّ يُروّج لأن تكون قضية ما مشكلة أمنية من خلال خطاب سياسي بالأساس.

2 - في خطاب الأمننة يُبنى (التهديد) من خلال سيناريوهات يُروَّج لها لتلاقي قبولًا من العامة، بينما في خطاب (مضامين الخطر) المخاطر موجودة ولا تحتاج إلى البناء، وتحتاج فقط إلى توسيع دائرة القبول، على أن قضية ما هي خطر.

3 - وإذا كان خطاب (الأمننة) يقوم على ابتكار إجراءات استثنائية غير اعتيادية وغير عادية للتعامل مع التهديد المحتمل أو الوشيك، فإن خطاب (مضامين الخطر) يعتمد على إجراءات اعتيادية وعادية في التعامل مع الخطر الموجود، بمعنى أن كل الإجراءات المعتمدة من قبله هي إجراءات طبيعية[11].

من هنا يمكننا تعريف (مضامين الخطر) على أنها حالة الخطاب الذي يصف خطرًا ما بأنه موجود وجودًا فعليًّا لا توقعًا، وأنه الخطاب الذي يزيد من قدرات الدولة والمجتمع على التكيف مع الخطر، وفق معالجة اعتيادية تتّسم بالمرونة والاحترازية، وقائم على خطط مسبقة طويلة المدى، تراعي فرص تحقيق السلامة والأمن للجميع.

ما يمكن استخلاصه مما سبق أن هناك خطًّا رفيعًا جدًّا بين خطاب الأمننة وخطاب (مضامين الخطر)، يتضح فقط من خلال تعرّف كنه الخطر، وكنه التهديد اللذين وُضِّحا سابقًا.

2 - الإسلام بين خطاب (الأمننة) وخطاب (مضامين الخطر)

شهدت العقود الثلاثة الماضية زيادة غير مسبوقة في المنشورات العلمية والصحافية حول الإسلام والمسلمين ووجودهما في الدول الغربية، حيث كانت هذه الزيادة في الإسهامات بدافع التطورات الداخلية والدولية التي شهدها العالم، خصوصًا عقب أحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر عام 2001، وتزايد عدد المهاجرين واللاجئين المسلمين في الدول الغربية التي تختلف جذريًّا من حيث المكوّن الثقافي والحضاري عن الوافد الجديد.

يمكننا تعريف (مضامين الخطر) على أنها حالة الخطاب الذي يصف خطرًا ما بأنه موجود وجودًا فعليًا لا توقعًا، وأنه الخطاب الذي يزيد من قدرات الدولة والمجتمع على التكيف مع الخطر

وتشير المنشورات الصحافية والأكاديمية ذاتها إلى أن العلاقات بين هؤلاء الوافدين والمجتمعات المضيفة علاقات متوترة جدًّا، نابعة من الأحكام المسبقة، والصور النمطية التي طُبعت في أذهان مجتمعات الدول المضيفة، التي تُمكن ملاحظتها في تقارير وسائل الإعلام، التي تصف المسلمين عادة بالمتعصبين والهمجيين والبدائيين؛ كل هذا في نظرة تعميمية تنمّ عن الجهل، وقصور الخبرة في التعرف إلى الإسلام.

تقليديًّا كان تعريف الأمن مرتبط بالجوانب العسكرية والسياسية، وحماية الدولة وحدودها، وسلامتها من التهديدات ذات الطبيعة العسكرية، غير أن التعريف المعاصر يتجاوز هذا التعريف الضيّق، إذ أصبح يعبّر أكثر عن المخاوف والتهديدات ذات الطبيعة الأيديولوجية الناتجة عن الهجرة، والاختلاف الإثني، والعرقي، والديني، والهوياتي، وقد صُوِّر الإسلام على أنه التهديد الذي يجمع كلّ الاختلافات الأيديولوجية المخالفة لما عليه الدول الغربية، وأنه (الآخَر) الذي لا يقلّ خطرًا عن باقي التهديدات الأخرى التي يجب أن تتصدّى لها الدولة القومية الغربية، مثله مثل العنف، والجريمة، والاتّجار بالبشر، والمخدرات- التي لها قوانين يتمّ التعامل معها وفقًا لها، وقد تعزّز هذا من خلال استخدام مصطلحات تنمّ عن العنصرية والكراهية تجاه الإسلام والمسلمين، حيث يمكننا أن نلمس هذه النغمة من خلال عبارات: (التدفّق) و(الغزو) و(الطوفان) و(التسلل)- التي أصبحت تُستعمَل بكثرة من طرف السياسيين وصناع القرار ووسائل الإعلام في الدول الغربية، وهذا يدل على أن خطاب الأمننة تحوّل من حماية الدولة إلى حماية المجتمع من كل أنواع (الشرور) التي يجلبها الإسلام في نظرهم، وهذا في الحقيقة اتّجاه يدلّ على العمل الجادّ في جعل الإسلام تهديدًا وجوديًّا يلاقي مصداقية داخلية[12].

ما تجب الإشارة إليه هو أن الصورة المغلوطة عن الإسلام والمسلمين لم تكن جديدة، وإنما ترجع أصولها لثمانينيات القرن الماضي، مع مراعاة أنّ العديد من السياسيين الأوروبيين

ووسائل الإعلام يرون أنّ الخطر والتهديد الحقيقيين يكمنان في الإسلام، من دون تقديم أي دليل ملموس على ذلك[13].

زيادة على ذلك نجد أن سيرورة عملية (أمننة) و(مضامين الخطر) الإسلام اتّخذت عدة صور وأشكال؛ منها المباشرة، ومنها غير المباشرة، ويمكن الحديث عنها أوّلًا من خلال الصور المباشرة، التي تتجلّى في التسليم بكون الإسلام تهديدًا إرهابيًّا، وهو ما حتّم على الدول الغربية عامة إعادة هيكلة أجهزتها الأمنية مع مثل هذا التهديد، وتعزيز القوانين الأمنية المتعلقة بمكافحة الإرهاب، ووضع مزيد من القيود على المهاجرين من ذوي الأصول الإسلامية[14].

كما وسّعت الدول الغربية قوانينها؛ لتتعامل بشكل أكثر قسوة، مع التهديدات المحتملة المرتبطة بالمهاجرين واللاجئين المسلمين، فمثلًا القانون الفرنسي لسنة 2001 يأذن لأجهزة الأمن الفرنسية بالتنصت على المكالمات، ومراقبة البريد الإلكتروني للأشخاص، ومداهمة المنازل، وأماكن العمل، ورصد المعاملات الإلكترونية وتسجيلها من دون إشعار... كلّ هذا على أنه جزء من التدابير المتّخذة لمكافحة الإرهاب[15].

كما سمح قانون الهجرة الفرنسي لعام 2003 بترحيل الآلاف من المهاجرين الذين اتُّهموا بأعمال جنائية على التراب الفرنسي، أو أن سلوكهم قد يشكّل تهديدًا وخطرًا على النظام العَام، إضافة إلى تشديد القيود على الهجرة غير الشرعية، وبخاصة الآتية من دول جنوب المتوسط المسلمة، زيادة على ذلك عملت الدول الغربية من خلال قوانينها على حظر الجمعيات ذات الطابع الديني، وتشديد القيود على تلك الموجودة، والتضييق على نشاطاتها الخيرية، وهو ما فعلته إيطاليا في سياق أمننة الإسلام، التي أصدرت هي الأخرى قانون الهجرة عام 2002،

الذي شـدّد العقوبات عـلى الهجرة غير الشرعية، وإقامة محتشـدات جديـدة، ومناطق الحجز، لكونها على تماسّ وتقارب كبير مع الدول العربية والإسلامية[16].

هذا إضافة إلى العديد من القوانين المرتبطة بالتضييق على الإسـلام والمسـلمين؛ كمصادرة الأمـوال التي تورّط أصحابهـا في أعمال تُوصَف بكونها إرهابية، وقوانين الاعتقال التعسـفية، كما حدث في بريطانيا، والحبس الاحتياطي، والتشديد على المساجد، وغيرها من القوانين التي لجأت إليها العديد من الدول الغربية، ولاسيّما الأوروبية منها، كهولندا مثلًا، التي أقرّت قانون الأجانب، وقانون التعددية الثقافية، وتأكيد استيعاب المهاجرين الذين يحملون القيم المشتركة مع المجتمع الهولندي فقط.

إن المتتبـع للأحداث يـرى بصورة جلية أن أحداث الحادي عشر من أيلول سـبتمبر كانت الأكثر تأثيرًا في واقع الإسلام والمسلمين في الدول الغربية، خصوصًا مع تزايد أصوات اليمين المتطرّف في شـتّى الدول الغربية، في وصم الإسـلام والمسـلمين بعبارات الكره والخوف التي تحمل الكثير من التحامل والتمييز؛ بسـبب المعتقد، والدين، وهو ما تجسّـد أكثر في الشـعارات والأصـوات المناديـة بكـون الإسـلام تهديـدًا وخطـرًا أمنيًّا، التـي تُرجمـت إلى أفعـال انتقامية جسـدية ولفظية ضدّ المسـلمين، وهو ما كشـفه تقرير (هلسـنكي 2005) الذي عدّد مجموعة من الأطراف، التي كان لها دور في تأجيج تصوير الإسـلام على أنّه تهديد أمنيّ، كما كشـف هذا التقرير أن حوالي 80٪ من الألمان لا يفرقون بين (الإسلام) و(الإرهاب)[17].

ما يكشـف أيضًـا عملية أمننة الإسـلام واعتباره تهديـدًا أمنيًّا تبنّي العديد من السياسـيين الغربيين ما سُـمِّي بصدام الحضارات، الذي يتبنّى خطابات عنصرية معادية للإسلام وكراهية (الآخر)، استنادًا إلى معتقده، وهنا يمكننا أن نعدّد بعضًا من أوجه أمننة الإسلام خاصّة، تلك التي اعتمدها اليمين المتطرّف في الدول الغربية.

ومن أهم صور أمننة الإسلام اعتبار الإسلام أكبر خطر وتهديد لثقافات الشعوب الغربية؛ نتيجـة (غزو المسـلمين) لها من خـلال الهجرة واللجوء إلى هذه الدول، وأنـه الدين الذي يهدّد المسـيحية، أضـف إلى ذلـك إقامة حمـلات معادية للمسـلمين، كخطابـات جان مـاري لوبان الفرنسـية Jean Marie Le-Pen، ويورغ حيدر Jörg Haider في النمسـا، وبيم فروتين Pim Fortuyn في هولنـدا- الداعيـة إلى تفضيـل المهاجريـن المسـيحيين عـلى المسـلمين واستبعادهم[18]، كما استعمل جورج بوش الابن عبارات معادية للإسلام، ولاسيّما في خطاباته حول (الحرب على الإرهاب).

وفعـل الأمر نفسـه غـيرت ويلـدرز Geert Wilders" الهولنـدي الذي دعا بشـدة إلى ضرورة القتال ضد (أسلمة هولندا)، وتأسيس التحالف الدولي للحرية، من أجل تأمين الدول الأوروبية والغربية، وحماية المصالح المشتركة، ضد تهديد القيم والتعاليم الإسلامية، وفي الوقت ذاته يسـتعمل خطابًا يصف فيه الإسـلام بعبارات متطرفة، تجعل من الإسلام تهديدًا في نظره، نحو اسـتعماله: "قـوى الظلام، قوى الكراهيـة، آفة الجهل..."؛ للدلالة على همجية الإسـلام،

ومن أهم صور أمننة الإسلام اعتبار الإسلام أكبر خطر وتهديد لثقافات الشعوب الغربية؛ نتيجة (غزو المسلمين) لها من خلال الهجرة واللجوء إلى هذه الدول، وأنه الدين الذي يهدّد المسيحية

وهو ما عبّر عنه في خطاب له يوم 09/ 11/ 2010 في نيويورك، حيث عارض فيه صراحة بناء المساجد متحجّجًا بأن الدول الإسلامية لا تسمح ببناء الكنائس المسيحية واليهودية، وأنه لا يوجد في مكة المكرمة دين آخر سوى الإسلام، وهو ما يتعارض مع الحرية التي يجب أن لا يتمتع بها المسلمون في البلاد الغربية[19].

وبناء عليه يشير ويلدرز إلى أن الإسلام يعدّ تهديدًا وجوديًّا للغرب، ومن هنا تجبُ أمننته؛ نظرًا إلى تعارضه مع القيم الغربية، مثل الحرية والديمقراطية... كما تشير تصريحاته المناهضة للإسلام إلى مدى الحقد والكراهية للمسلمين؛ بسبب معتقداتهم ودينهم فقط[20].

الصورة الأخرى لواقع أمننة الإسلام ما مثّلته فكرة صدام الحضارات التي تحدّث عنها صاموئيل هنتنغتون Huntington، وكرّسها السياسيون، والصحافيون، والخبراء الإستراتجيون لشرح الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين في الغرب، وفكرة العدو البديل الذي لا غنى عنه لاستمرار الحضارة الغربية، حيث تتلخّص فكرة صدام الحضارات كما أشار إليها هنتنغتون في تنافس وصراع الهويات الحضارية الموجودة أساسًا بين الغرب والعالم الإسلامي، وأنه سيكون مصدرًا رئيسًا للصراع في النظام الدولي الجديد، وبخاصة مع تحالف باقي الثقافات الأخرى؛ لاعتبارات سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية مع الغرب ضد الإسلام والمسلمين[21].

أما وفقًا لباري بوزان buzzn فإن الذي ضاعف حدّة التهديد الإسلامي أكثر هو العداء التاريخي، والجوار الجغرافي، والدور الذي يؤدّيه الإسلام في حياة معتنقيه، وأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي له هوية جماعية قادرة على التوسّع والتأثير من دون أن تتأثر، وبخاصة مع تزايد أعداد المهاجرين واللاجئين نحو الغرب، وهو ما ينبئ بحرب اجتماعية باردة بين هؤلاء اللاجئين والمهاجرين المسلمين مع المجتمع المضيف[22]، الذي يَعدّ هؤلاء المهاجرين خطرًا بيئيًّا يجب التعامل معه بحزم؛ حفاظًا على البيئة، وهو ما كرّسته القوانين البريطانية[23].

كما لم تقتصر تجلّيات أمننة الإسلام في تلك الصورة التي يروّجها السياسيون، ووسائل الإعلام، بل تعدّت ذلك لتشمل المعتقدات المجتمعية التي أصبحت تربط مباشرة الإسلام بالإرهاب، والأكثر من ذلك تحوّل هذه المعتقدات إلى قناعات راسخة يصعب دحضها، مع تواصل الترويج والتهويل لاعتبار الإسلام تهديدًا أمنيًّا؛ إذ يعكس هذا الأمر ما يروّج له الحزب الوطني البريطاني أن العدو الجديد لبريطانيا هم المسلمون[24].

وما يمكن الإشارة إليه أيضًا أن أمننة الإسلام تجلّت في الصورة المباشرة التي تظهر من خلال الصلة بالوحدات المرجعية المتعارف عليها في تحديد [المفهمة الأمنية] التي عادة

ما تقوم بها الحكومة بطريقة رسمية، كما تجلّت في أمننة غير مباشرة تم رُوِّج لها عبر وسائل غير رسمية، من خلال محاربة التطرف الذي دائمًا يُلحَق بالإسلام والمسلمين، على الرغم من أن التطرّف لا يقتصر على المسلمين وحدهم، وسن القوانين التي يتمّ من خلالها الحفاظ على العلمانية وحرية التعبير في الدول الغربية، وتقويتها ضد الوافد الجديد، واعتبار المساس بتعليمات الدين الإسلامي ورموزه ومقوّماته من قبيل حريّة التعبير المكفولة قانونًا، إضافة إلى ذلك فإن الحملات الغربية ضد الدول العربية والإسلامية ما هي إلا لكسر شوكة الإسلام الذي إذا قوي في هذه الدول فإنه حتمًا سيتّجه نحو الخارج، وأن الدول المرشّحة للغزو هي الدول الغربية، ومن ثمّ وجب العمل، والحيلولة دون أن يتقوّى داخليًّا، حتى وصل الأمر إلى حدّ الترويج للإسلاموفوبيا داخل الدول الإسلامية نفسها، وذلك لتخويف المسلمين من إسلامهم، والترويج له على أنه دين التطرف[25].

إنّ الذي يلاحظ في عملية أمننة الإسلام أنها كانت أكثر حدّة ومبالغًا فيها، ذلك أن التطرف (الإسلامي) الذي يصفه الغرب لا يكاد يذكر، إذا قورن بذلك الناجم عن تطرّف اليمين أو اليسار الذي يعدّ مختلفًا من حيث النوع والكمّ، غير أن الفرق يكمن في كون الإسلام يحمل اختلافًا عقديًّا وثقافيًّا يجعله أكثر تهديدًا للدول الغربية في نظرهم[26].

إن الأمننة التي ينتهجها السياسيون وصناع القرار في الدول الغربية كان لها تفاعل واضح مع مفردات العنصرية والكراهية والخوف من الإسلام، وإن التفرقة والتحيّز تجاه الإسلام كانا مبنيين على أساس الاختلاف العقَدي والثقافي، لا على أساس الخطر والتهديد اللذين يُتَّهم بهما الإسلام.

إن استمرار أمننة الإسلام والمسلمين سيؤدي بالتأكيد إلى نتائج وردّات فعل عكسية، والشكّ في حقيقة التهديد الفعلي للدول الغربية، ذلك أن المتلقّي لفعل الأمننة يلاحظ أن ذلك التهويل هو لتهديد لا يُعدّ كذلك، لذا لن يقبله ما لم يكن موضوعيًّا وبعيدًا عن الذاتية.

ما يمكن استنتاجه أيضًا من خلال ما سبق أن الدولة الحديثة عادة تلجأ إلى خطاب الأمننة كأسلوب في العملية السياسية، من خلال جعل المجتمع يندمج فيما تريده الدولة عن طريق تصنّع تهديد وجودي يتمتع بالمصداقية الداخلية وحتى الخارجية؛ كالإرهاب الإسلامي في نظرهم، الذي رُوِّج له على أنه عدو كباقي التهديدات الأخرى التي تتعامل معها أجهزة الأمن، وأنه لا يهدّد الدولة لوحدها؛ بل المجتمع أيضًا، وبأكثر حدة.

الملاحظ أيضًا حول أمننة الإسلام أنها بدأت بالخوف مع كتابات هنتيغتون، وتطورت إلى العداء والكراهية مع أحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر 2001. والأحداث التي حدثت في بعض الدول العربية والإسلامية، كالعراق وأفغانستان– خير دليل على وجه العداء ضد الإسلام، كما أن هذا العداء لم يتوقف عند السياسيين ووسائل الإعلام، بل تعدّاه إلى المجتمع الذي يمارس عداءه للمسلمين والإسلام بشكل يومي.

وممّا تجدر الإشارة إليه أن أمننة الإسلام ركّزت فقط على وصم الدين الإسلامي بكونه تهديدًا للهوية والثقافة الغربية، من دون أن تركّز على ردود الأفعال المضادّة من قبل العالم الإسلامي، الذي يحتاج إليه بدلًا من ذلك؛ للتعرف أكثر عليه وعلى دينه، وأن علاقة الغرب بصفة عامّة مع الإسلام والمسلمين خضعت لعملية تسييس كبيرة، وكانت ضحيتها المجتمع الغربي كالمجتمع الإسلامي اللذين بُنيت بينهما حواجز وعراقيل الانفتاح الثقافي والهوياتي، والذين أدّوا الدور البارز فيها هم السياسيون ووسائل الإعلام.

وعلى الرغم من النجاح النسبي لعملية أمننة الإسلام، إلا أن المجتمع الغربي المضيف لم يوافق بصفة مطلقة على العملية، وربما كان المطلوب في نظره هو القيام بإجراءات أخرى لحماية القيم والهوية الغربية، بدلًا من الهجوم على أطراف أخرى، وضرورة أن يُوسَّع النقاش حول الأديان، إضافة إلى أن يتمّ الفصل الحادّ بين ما يمثّله الإسلام بوصفه دينًا وعقيدة وقيمًا وفلسفة حياة، وبين ما يمثّله بعض المنتسبين إليه، وبعض ما يعبّرون به عن الإسلام، كما يجب تصحيح الصورة المغلوطة المروّجة عن الإسلام، وأن يتمّ كل ذلك في إطار من الشفافية، بدءًا باستبعاد كل المتورطين في تأجيج صور أمننة الإسلام، من السياسيين والإعلاميين ومؤسسات المجتمع المدني، وانتهاء بالممارسات العنصرية وصور الكراهية تجاه الإسلام.

واقعيًّا هناك خط رفيع جدًّا بين أمننة الآخَر والعنصرية، وتتفاقم المشكلة أكثر مع وجود هذه العنصرية والتمييز، غير أن الاختلاف بينهما يكمن في وجود قبول لفعل الكلام الأمني لدى الجماهير من عدمه، وهو ما يستند إلى وجود التهديد وجودًا موضوعيًّا أكثر من وجوده وجودًا ذاتيًّا أو ضمنيًّا، وهو في الوقت ذاته مبني على الفهم، والاشتراك الجماعي في تصور التهديد.

وعلى العموم فإن الصورة المشوّهة عن الإسلام في وسائل الإعلام، وعند صنّاع السياسات والمجتمع المدني الغربي لم تكن وليدة العشرية الأخيرة، بل لها امتداداتها في سنوات السبعينيات من القرن الماضي، وصولًا إلى تلك الصور التي لا تزال في الذاكرة الجماعية الغربية التي تستحضر الإرهاب والقسوة والعنف والدموية والتهديد... في كل مرة يدور فيها الحديث عن الإسلام.

وعلى هذا الأساس فقد ظهرت في الآونة الأخيرة أصوات غربية تدعو إلى ضرورة التوصّل إلى تفاهم مع الإسلام من دون الخوف منه، وهو الذي تمثّل في العديد من القوانين التي تدعو إلى المحافظة على حقوق المسلمين في مختلف المجالات، نحو ما حدث في فرنسا، من خلال إنشاء وزارة تكافؤ الفرص والتشريعات التي تجرّم خطابات الكراهية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بإنشاء مراصد ترصد الانتهاكات الناتجة عن الكراهية والتمييز ضد المسلمين، وفي إيطاليا عام 2005 بإنشاء المنظمة الإسلامية لرابطة مكافحة التشهير ضد المسلمين، وفي ألمانيا بإنشاء الفوروم الإسلامي الألماني الذي يُعنَى بمحاربة كل الأشكال المعادية للمسلمين...

إضافة إلى إسـبانيا التي أنشأت المجلس الاستشاري للعمل على إدماج المهاجرين عام 2006، والأمر نفسـه فعلته هولندا من خلال إنشـائها لجنة المسـاواة؛ لتنفيذ قانون المسـاواة في المعاملة الـذي صـدر عـام 1994، إضافـة إلى الحـوارات التـي تُعقَـد من حـين إلى آخر بـين الأديان، وخصوصًا بين المسـيحية والإسلام؛ بهدف تقريب وجهات النظر بينهما على الأقل في القضايا الأكثر جدلًا.

الهوامش والمصادر :

1. Uzzi Ohana, "The Securitisation Of Others: Fear, Terror, Identity", Paper Prepared For The 6th Pan-European Conference On International Relations: Making Sense September, 2007, University Of Turin, Italy 15-Of A Pluralist World 12
2. Steve Smith and Amitav Acharya," The Concept of Security Before and After September 11", Institute of Defence and Strategic Studies Singapore, MAY 2002,p02.
3. Uzzi Ohana, "The Securitisation Of Others: Fear, Terror, Identity",p.5.
4. Uzzi Ohana, "The Securitisation Of Others: Fear, Terror, Identity",p.6.
5. Ibid.
6. Uzzi Ohana, "The Securitisation Of Others: Fear, Terror, Identity",p.07.
7. Ibid.
8. Uzzi Ohana, "The Securitisation Of Others: Fear, Terror, Identity",p.08.
9. Uzzi Ohana, "The Securitisation Of Others: Fear, Terror, Identity",p.11.-12.
10. Olaf Corry, "Securitzation and 'Riskization': Two Grammars of Security", Working paper prepared for Standing Group on International Relations, 7th Pan-European International Relations Conference, Stockholm 9th-11th September, 2010.p16
11. Ibid.p 17.
12. Ayhan Kaya, "Islam, Migration and Integration The Age of Securitization", Palgrave Macmillan,UK,2009.p09.
13. W. Shadid & P.S. van Koningsveld, "The Negative Image of Islam and Muslims in the West: Causes and Solutions", In: Shadid, W. & P.S.van Koningsveld (Eds.): (2002): Religious Freedom and the Neutrality of the State: The Position of Islam in the European Union. Leuven, Peeters, pp.174-196.
14. Jocelyne Cesari, "The Securitisation of Islam in Europe, Liberty and Security", research paper N:15, april 2009, p10.
15. Ibid,p11.
16. Ibid,p11.
17. Ben Tonra," Islam - Religion Or Security Threat? An Analysis Of The Securitization Of Islam In The West", Paper conducted for a course in International Security at the University College Dublin, 2010, p08.
18. Ibid,p08.

هو سياسي يميني هولندي. وعضو في مجلس النواب الهولندي. له مواقف عدائية ضد الإسلام

والمسلمين.

19. Ben Tonra," Islam - Religion Or Security Threat? An Analysis Of The Securitization Of Islam In The West",p09.
20. Ibid.
21. للتعمق أكثر في هذه الفكرة ارجع إلى: صموئيل هنتنغتون. صِدام الحضارات.
22. W. Shadid & P.S. van Koningsveld, "The Negative Image of Islam and Muslims in the West: Causes and Solutions", ,p179.
23. Uzzi Ohana, "The Securitisation Of Others: Fear, Terror, Identity",p.11.
24. Yasmin Hussain and Paul Bagguley," Securitised Citizens: Islamophobia, racism and the 7/7 London Bombings", The Sociological Review, Volume 60, Issue 4 ,(November 2012),p.715-734.
25. Uzzi Ohana, "The Securitisation Of Others: Fear, Terror, Identity",p.11-12..
26. Ulrik Pram Gad, "Preventing radicalisation through dialogue? Self-securitising narratives vs. reflexive conflict dynamics", Center for Advanced Security Theory, University of Copenhagen, Denmark,2012, p20.